تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (لعبد الجبار ناجي)

سعيد عدنان

ناجي، عبد الجبار / تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي. — بغداد . دار الجاحظ، ١٩٨٠ (سلسلة المكتبة الصغيرة ٨٥).

بدأ الاستشراق منذ أن اتجه الغرب نحو الشرق ابتغاء المعرفة وما يتبع المعرفة أو ما يسبقها من رغبة في السيطرة والاستثمار، ولعل أول من بحث في شؤون الشرق، لم يكن يريد أن يقف عند البحث والاطلاع، وإنما يريد أن يتخذ من البحث التاريخي تمهيداً لرجال آخرين من قومه يهبطون الشرق مستعمرين، ولعل أمثال هذا المستشرق الممهد للاستعمار ما يزالون يبحثون ويؤلفون ؛ غير أنه من غير الصواب أن نحكم على أولئك المستشرقين بأنهم طلائع الاستعمار، لأن منهم من كان حب المعرفة يدفعه ليبحث في تاريخ الشرق، ولأن منهم من كان يجد في الشرق ملاذاً لأزمة ذاتية شخصية، أي أنه هارب من الغرب وحضارته إلى الشرق.

ولا ريب أن الغربي الذي يبحث في الشرق ينطلق من رؤيا الحضارة الغربية، وهي رؤيا تختلف عن رؤيا الحضارة العربية الإسلامية فلا غرو أن تختلف النتائج التي ينتهي إليها المستشرق عما هو مألوف لدى العرب المسلمين.

إن قضية الاستشراق هي أولاً قضية الحضارة الغربية، لا تفهم حق الفهم إلا إذا وضعت في سياق تلك الحضارة؛ حيث أن الجذور هناك؛ والنسغ الذي يغذيها مستمد من تلك الأرض.

ولعل الدراسات الاستشراقية تكشف الشخصية الغربية ونوازعها وثقافتها، أكثر مما تكشف الشخصية الشرقية، أي أن المستشرقين جعلوا من الشرق مرآة عكسوا فيها صورهم.

وقد كتب كثير من الباحثين عن الاستشراق، من الغربيين والعرب، ولعل من أواخر ما كتب كتاب «تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي» للدكتور عبد الجبار ناجي.

جاء الكتاب على أربعة عنوانات؛ لم يشأ المؤلف أن يسميها فصولاً:

الأول : الاستشراق والتاريخ العربي الإسلامي.

الثاني : المجالات التي ركز عليها الاستشراق في دراسة التاريخ العربي الوسيط.

الثالث : المستشرقون والمراحل التاريخية التي مرّ بها الاستشراق.

الرابع : تطور الدراسات الاستشراقية عن الرسول القائد.

ابتدأ المؤلف بذكر من سبقه من دارسين تناولوا الاستشراق، عرباً وأجانب، لكي يعرض من خلال ما أشار به إليهم، المذاهب في تفسير حركة الاستشراق، ولكي يدعو الباحثين العرب إلى درس إتجاهات المستشرقين وتبيّن ما فيها من خطل وزلل شوه الحقيقة العربية الإسلامية في الغرب، لأن كثيراً من المستشرقين كان مدفوعاً بدافع تبشيري نصراني يريد أن يثير الشكوك في الإسلام لكي يمهد الطريق للنصرانية، أو مدفوعاً بدافع سياسي يريد أن يضعف الشرق لكي يستعمره.

قلنا إن الاستشراق قضية الحضارة الغربية؛ والمستشرق إذ يدرس تراث الشرق فإنما ينطلق من رؤيا حضارته؛ ويبحث عما يريد، ولعله يقف عند مسألة لا تستوقف الشرقي، ولعله يعني بدرس قضايا لا يعنى الشرقي بها. ولقد عني المستشرقون بالكتابة عن «المبادىء الإسلامية أو الفقه أو الفرق والمذاهب الإسلامية أو المسائل الدينية أو الدعوة الإسلامية أو حياة الرسول الكريم أو القرآن المجيد؛ فلقد شغلت مثل هذه الموضوعات اهتمامات المستشرقين في كل من فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا لا سيما منذ نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً لما لها من علاقة سياسية وثيقة بحركة التوسع والاستعمار الأوربي» [ص ٩ — ١٠].

إن المستشرق ذا الهدف السياسي، يدرس الماضي العربي الإسلامي ليهتدي إلى مواطن الضعف والقوة، لكي يهيىء الأرض لرجال السياسة في بلده، فلما اتجه البرتغاليون لاستعمار المنطقة العربية، والسيطرة عليها، وعلى طرق التجارة سبق هذا المشروع حركة الاستكشافات الجغرافية [ص ١٣].

ولقد كان من وسائل اتصال الغرب بالشرق البعثات التنقيبية يرسلها الأوربيون لكي تنقب عن آثار بلدان الشرق؛ وما قام فيها من حضارة قديمة، وكان من نتيجة ذلك أن استحوذ الأوربيون على كثير من آثار هذه البلدان، فلا عجب أن تجد المتاحف الأوربية

تغص بآثار شرقية لا تجدها في بلدها.

ومن اتصال الغرب بالشرق، الارساليات التبشيرية، إذ وجد جماعة من المستشرقين تعلموا العربية وبحثوا في التاريخ الإسلامي، سموهم أصلاً «مبشرون»، أمثال الأب جوسين والأب جاك جوسييه والأب لويس كارديه من فرنسا، والأب صموئيل زويمر الأمريكي رئيس المبشرين في الشرق الأوسط [ص ١٦].

وكذلك اتصل الغرب بالشرق عن طريق شركات النفط، وقد اجرت هذه الشركات دراسات حقلية، جغرافية وطوبوغرافية واقتصادية للمناطق الغنية بالنفط.

ثم إنه أسست في الغرب مراكز تعنى بدراسة الشرق وخُصصت له أقسام في الجامعات.

كل ذلك لكي يعرف الغرب الشرق ويصوره في ماضيه وحاضره على صورة يسهل عليه بها استعماره.

تلك من سلبيات الاستشراق، أما إيجابياته فانها عند المؤلف: «ما تثيرو فينا ـــ نحن العرب ـــ من اندفاع قوي للاستجابة العلمية المنظمة المعتمدة على أساليب بحث علمية ... لاعادة دراسة تاريخنا العربي» [ص ٢٠ ـــ ٢١] . والعناية بما لم يعن به المستشرقون لأنهم عنوا بما يحتاجون إليه وبما يرون به أنفسهم.

ينبغي للعرب الخروج من الرؤية الاستشراقية لأنها رؤية غربية لا يستطيعون أن يكتشفوا تاريخهم بها، إنها رؤية مثقلة بحضارة الغرب ومشاكله.

ولقد مرّ الاستشراق بأطوار، إذ اختلط أول أمره بالتبشير فوجد من المبشرين من تعلم العربية ودرس التراث العربي، غير أنه ليس كل مبشر مستشرقاً ، وهنا يبرز الدافع الديني إلى الاستشراق لأن غاية المبشر إثارة الشكوك في الإسلام عقيدةً، ونبياً، وشرائع، لكي يمهد الطريق للنصرانية.

وهناك دافع آخر سياسي، لعل أصوله ترجع إلى أيام الحروب الصليبية، وطبيعي أن يستمر هذا الدافع ما دام من أهداف الغرب السيطرة على الشرق، وما فيه من ثروات وخيرات غير أننا لا نعدم مستشرقين مدفوعين بحب الاستطلاع لا ينتوون بالعرب والمسلمين شراً، غير أن هؤلاء أيضاً لا يستطيعون أن ينسلخوا من الرؤيا الغربية فهم محكومون بالمنظار الغربي.

وكانت حركة الاستشراق محكومة بتطور مصالح الغرب في الشرق ويمكن أن توضع في ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى :

«تمثل هذه المرحلة الاتجاهات الاستشراقية وكتابات المستشرقين التي ظهرت في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر ... وقد أسس أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في سنة ١٥٣٩ ، وأسس الكرسي الآخر للغة العربية في جامعة ليدن بهولندا في سنة ١٦١٣» [ص ٣٠].

وهذا يدل على أن المدرسة الفرنسية في الاستشراق والمدرسة الهولندية قد سبقتا غيرهما من مدارس الاستشراق كالمدرسة البريطانية والمدرسة الألمانية، وذلك لأن مصالح فرنسا وهولندا قديمة في الشرق.

وقد اتصفت هاتان المدرستان (الهولندية والفرنسية) بأن مستشرقيها الأوائل اهتموا باللغة العربية والأدب العربي، وكان مما نشر في مطبعة ليدن المشهورة كتاب «العوامل المائة في النحو» لعبد القاهر الجرجاني. وقد استمر الاستشراق الهولندي والفرنسي معنياً بالدراسات اللغوية والأدبية، ولك أن تضيف إليهما الاستشراق البريطاني والألماني والروسي منذ القرن التاسع عشر. فقد عنيت المدرسة الروسية باللغة العربية والأدب العربي، ولعل عناية الاستشراق أولاً باللغة والأدب أمر طبيعي، لأن اللغة والأدب مفتاح الفكر لا يتهيأ الدخول إليه قبل اتقانهما.

ومما اتصفت به مدارس الاستشراق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر التوجه نحو المخطوطات العربية تحقيقاً ونشراً فقد نشر المستشرق الهولندي دي يونغ صحيح البخاري والأنساب لأبي فضل المقدسي والأنساب المتفقة لابن القيسراني وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي، وقد نشر المستشرق المشهور دوزي «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمراكشي، و«البيان المغرب» لابن عذارى و«نزهة المشتاق» للادريسي.

وممن يذكر من المستشرقين؛ المستشرق الفرنسي دي ساسي فقد نشر جملة من مخطوطات مكتبة باريس الوطنية، وكتب عن تاريخ العرب وأصل آدابهم، كما حقق أشعار المعري ومقامات الهمذاني.

وقد اتصف الاستشراق الروسي أنه اتجه نحو تحقيق ودراسة ما يتعلق بآسيا الوسطى والشرق، فقد كتب المستشرق خاينكوف عن مملكه بخارى، وآسيا الوسطى، والمصادر العربية والفارسية والتركية عن بحر قزوين.

وبما اتصف به الاستشراق الألماني أولاً ثم الاستشراق الفرنسي،

في هذه المرحلة الأولى، العناية بالمواضيع العلمية في الحضارة العربية الإسلامية، فقد عني كاراديفو بالرياضيات فترجم فصلاً من كتاب التذكرة للطوسي وعني المستشرق الألماني فويكه بالجبر فنشر «براهين الجبر والمقابلة» للخيام وكتاب «الفخري في الجبر والمقابلة» للكرخي و«خلاصة الحساب» لبهاء الدين العاملي.

كما كان من خصائص هذه المرحلة الأولى من الاستشراق ، أن بعضاً من المستشرقين كانوا سياسيين، أي أنهم كانوا يمثلون بلادهم سياسياً في بلدان الشرق، فقد كان «كالفرلي» الأمريكي مستشارا للشؤون العربية في شركة الزيت العربية الأمريكية، وقد كان كلود لوني جيمس ممثلا لشركة الهند الشرقية البريطانية، ثم أصبح المقيم البريطاني في بغداد، وكان برنارد قنصلاً بريطانياً في تونس.

المرحلة الثانية :

شهد العالم الأوربي تغيراً في السياسة والاقتصاد، منذ منتصف القرن التاسع عشر، حتى بلغ أوجه في السنوات الأربعين الأولى من القرن العشرين، فقد شرعت الدول الأوربية تتنافس على المواد الأولية التي تحتاج إليها في صناعتها، كما تتنافس على الأسواق التي تبيع فيها مصنوعاتها؛ وقد شهدت السنوات الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، أفول قوى سياسية استعمارية كالبرتغاليين والهولنديين، وظهور قوى سياسية أخرى كالبريطانيين والفرنسيين والألمان، كما شهدت هذه السنوات ضعف الأمبراطورية العثمانية ثم سقوطها، وقد أسرعت الدول الأوربية للاستيلاء على تركة «الرجل المريض» والاستئثار بها قبل غيرها.

تلك أسباب زادت من اهتمام الغرب بالشرق، وقد اتصفت حركة الاستشراق في هذه المرحلة الثانية بصفات منها: أن العناية باللغة والأدب دراسة وتحقيقاً ونشراً قد ضعفت عدا الاستشراق الألماني، إذ واصل نولدكه عنايته باللغة العربية، والتأليف في قواعدها كما كتب آدم متز عن الشعر العربي، أما التوجيه نحو المخطوطات العربية عامة، فقد نشطت حركة التحقيق والنشر لشتى المخطوطات في مختلف ميدان المعرفة، ولا سيما كتب التاريخ، فقد حقق المستشرق أمدروز تجارب الأمم لمسكويه، وتحفة الأسرار في تاريخ الوزراء لهلال الصابي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي كما كتب المستشرق لي سترنج كتابين تاريخيين الأول عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية والآخر عن بلدان الخلافة الشرقية

ومما اتصفت به هذه المرحلة، العناية الفائقة بالعقائد الإسلامية والدين الإسلامي، وحياة الرسول الكريم، وهي «مسألة تحمل أهمية خاصة إذا ما التفتنا إلى الظروف السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى والتي تلتها ومحاولات الدول الأجنبية تثبيت سيطرتها على المناطق العربية» [ص ٥٢]. فقد كتب فان فلوتن الهولندي عن الفتح العربي، والسيادة العربية، والشيعة، والاسرائيليات في عهد بني أمية، وكتب فنسنك عن الصوفية؛ وكتب فلهاوزن عن الدولة العربية وسقوطها منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية الدولة الأموية وكتب بول كراوس عن الصوفية والاسماعيلية.

وقد عني الاستشراق بقضية الخلافة، ولا سيما الاستشراق البريطاني، فقد كتب وليم مبور «الخلافة، ظهورها وانحطاطها وأفولها» ثم كتب السير توماس «الخلافة» ولم يقف الاستشراق عن درس تاريخ الإسلام وإنما اتجه يؤلف في الإسلام المعاصر، فقد كتب السير توماس ارنولد عن الهندوكية والإسلام في الهند، وألف السير هملتون جب عن الاتجاهات الحديثة في الإسلام، والديانة المحمدية والتفكير الديني.

ومن مميزات المرحلة الثانية هذه؛ أن الاستشراق الألماني بقي معنياً بتاريخ العلوم عند العرب، دراسة وتحقيقاً ونشراً فقد نشر المستشرق هيرشبرغ رسالة طب العيون لابن سينا.

أما الهدف التبشيري فإنه مستمر أيضاً في هذه المرحلة، وعرف هنري لامانس، من كبار المستشرقين المبشرين الذين اتقنوا العربية وحازوا علماً كثيراً في التراث العربي الإسلامي، غير أن دافعهم كان الحقد على الإسلام والمسلمين.

وقد وجد مستشرقون سياسيون كالمستشرق لويس مرسيه الذي كان ضابطاً فرنسياً ثم أصبح وزيراً مفوضاً، وقد كتب عن تطوان والرباط والمستشرق، أرنولد ولسون.

المرحلة الثالثة :

بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد قيام الثورات في منطقة الشرق الأوسط ، اتجه الاستشراق إلى دراسة التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية، ووجد في الولايات المتحدة، من يدعو إلى قيام علم اجتماع لمنطقة الشرق الأوسط، وكان لابد ان تتصف حركة الاستشراق في هذه المرحلة بصفات خاصة بها، ومن تلك الصفات: قلة عناية المدارس الاستشراقية بالدراسات اللغوية عدا ما كان يجري في الاستشراق الألماني، إذ واصل المستشرق كارل بروكلمان بحوثه في النحو والصرف في العبرية والآرامية، وقواعد اللغة

العربية، ووضع تاريخ الأدب العربي.

ومن خصائص هذه المرحلة زيادة البحوث في التاريخ المعاصر، وفي الاسلام المعاصر، غير أنك لا تعدم أن تجد مستشرقين بقوا معنيين بالدراسات التراثية، في ميادين اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة ، والعقائد ، ولا تعدم أن تجد آخرين توفروا على تحقيق المخطوطات ونشرها.

والحق أن ميدان التحقيق والنشر مما يسجل للمستشرقين في سجل فضائلهم، فلقد أفرغوا الوسع في سبيل إخراج المخطوطات العربية في شتى الميادين أخراجاً علمياً سليماً، ولا ريب أن نشر المخطوطات نشراً علمياً، الخطوة الأولى ـــ التي لا مندوحة منها ـــ لمن يريد أن يدرس التراث العربي الإسلامي.

ولم يأفل الاتجاه التبشيري في هذه المرحلة، بل هو مستمر، كما كان فقد كتب الأب جاك جومييه حول الاتجاه الحديث في تفسير القرآن في مصر، كما كتب المستشرق الأمريكي زويمر ـــ وهو مبشر متعصب ـــ عن العلاقة بين المسيحية والاسلام.

بعد أن فرغ المؤلف الدكتور عبد الجبار ناجي من مراحل الاستشراق وأطواره انتقل إلى موضوع عني به المستشرقون كثيراً واختلفوا فيه كثيراً ، وكان المحك الذي يكشف عن نواياهم، ذلك هو شخصية النبي محمد بن عبد الله ﷺ فوجد أن موقف الاستشراق من شخصية النبي الكريم يتطور عبر ثلاث مَراحل:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة ترجع أصولها إلى العصور الوسطى، إذ احتك الغرب بالشرق، وأخذ يكوّن له صورة عن الإسلام، وعن نبيه الكريم صورة لا تتوخى الحقيقة ولا تنبع من الصدق، وإنما هي نسج من الأوهام التي ترضي الذات الغربية وتحلها المكان الأرفع عند نفسها، وقد لا يصح أن نسمي ما قيل في هذه الحقبة من آراء، استشراقاً ولكنه الأساس الذي قام عليه فيما بعد الاتجاه التبشيري في الاستشراق حيث اصطنع الشكل العلمي، وقد اتصفت هذه المرحلة بـ :

١ ـــ التطرف الشديد في عرض الآراء والأفكار والتفسيرات المعادية للرسول الكريم ﷺ والقرآن المجيد.

٢ ـــ الجهل البين بالكثير من المصادر العربية الإسلامية، ولا سيما كتب السيرة والحديث والحوليات التاريخية.

٣ ـــ غلبة الطابع الأسطوري والقصص الخيالي على ما قيل من آراء [ص ٨٦].

وقد انصبت جل جهود المستشرقين على التشكيك في صدق نبوة النبي الكريم ﷺ، وفي صدق القرآن. ويعد دانوكونا من أوائل المنادين بهذه الآراء التعصبية في كتابه «أسطورة محمد في الشرق» وقد صور دانتي صاحب الكوميديا الآلهية الرسول الكريم ﷺ تصويراً يدل على حقده وتعصبه، ولم تنته هذه الآراء عند العصور الوسطى بل تعدتها إلى عصر النهضة، فقد وجد من فسر الدعوة الإسلامية على أنها انتقام الرب مما شهدته الكنيسة الشرقية من انقسامات فالرب هو الذي أرسل السراسين (أي العرب) ليكونوا أدوات غضبه [ص ٨٨].

المرحلة الثانية :

إذ أقبل القرن الثامن عشر، أخذت النزعة العقلية تنمو وتشتد، وأخذت الفلسفة تجعل من مبدأ النقد والتحليل أساساً لها،وقد بنى ديكارت فلسفته على الشك المؤدي إلى اليقين، ولم يعد التاريخ سرد الأحداث ممزوجةً بالخيال والأوهام، وإنما هو يطمح إلى أن يكون علماً أو شيئاً كالعلم يستعين بالنقد والتحليل وقد انعكس كل ذلك على حركة الاستشراق فعدلت من آرائها المتعصبة في شخصية النبي ﷺ ووجد منهم من يعد النبي الكريم «مصلحاً علمانياً غير مسيحي قاد صحبه ومؤيديه من أجل التحرر من التعاليم اللاهوتية الغامضة» [ص ٩٢]. وقد نشر المستشرق الفرنسي كونت هنري دي بولينفيه كتاباً بعنوان «حياة محمد» فنّد به ما كان سائداً في العصور الوسطى، مما يتعلق بشخصية النبي الكريم.

وقد تحدث كارليل في كتابه «الأبطال» عن الرسول ﷺ فصوره تصويراً بطولياً ممتدحاً أخلاقه وأمانته وصدق دعوته ووصفه بأنه الموقظ الملهم لشعبه.

المرحلة الثالثة :

وقد وجد من المستشرقين من عني بالجوانب الاجتماعية التي قام بها الرسول ﷺ مثل المستشرق هيوبرت جريم. لكن لا نعدم مستشرقاً مبشراً متعصباً كهنري لامانس يولي الحياة الاقتصادية والمدنية أهمية كبيرة ويعد الدعوة الإسلامية نتاج المجتمع الحضري، وقد ردّ عليه أقواله هذه من المستشرقين، مونتغمري وات.

جملة الأمر في قضية الاستشراق أنها قضية غربية، تمثل نظرة الرجل الغربي إلى الشرق، فإذا أراد الشرقي أن يجد ذاته ويكتشف تاريخه، فعليه أن يهتدي إلى رؤياه الخاصة.